

الهجاء بالمرأة

في نقائض جرير والفرزدق

الدكتور: هادي سدخ زغير العزاوي

جامعة واسط - كلية الآداب

الدكتور: جميل بدوي حمد الزهيري

جامعة واسط - كلية الآداب

المقدمة:

لا يمكن لإبداع الإنسان أن يقف عند حدود معينة، فلا بد لهذا الإبداع أن يواكب تطور الحياة على الصعد كافة؛ لاستيعاب كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري، ومنها إبداع العرب في ميدان الأدب، ولاسيما شعرهم الذي كان بحق ديوانهم؛ لأنه حفظ الكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مواكبا ما يطرأ عليها من تغيرات بفعل حركة الفكر العربي باتجاه تنظيم مسار الدولة منذ مراحلها الأولى حتى ما آلت إليه من التعقيد والتشعب في مختلف الاتجاهات التي تجلت لنا بوضوح في عهد الدولة الأموية إذ تعد هذه المرحلة من أكثر المراحل تعقيداً من حيث تضارب الأفكار واختلاف الاتجاهات، وتفكك وحدة الأمة التي جمع شملها الإسلام الحنيف، فقد عمد الأمويون إلى تثبيت ملكهم على حساب الكثير من مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحاء، وقد سخروا الشعر لخدمة أغراضهم السياسية وجعلوه وسيلة دعائية لإقناع الناس بأحقية دولتهم، ومقابل هذا اتخذت الفرق والحركات السياسية من الشعر صوتاً؛ لتنفيذ أسس الدولة، وما يسمى بالخلافة الأموية فكل يعلن أفكاره، وأحقيته بالملك، وكان الشعر الوسيلة المثلى لأداء هذه الأغراض، وقد تمسك الأمويون بالكثير من التقاليد الجاهلية، ومنها التعصب القبلي، فهم ((أسرة عريقة النسب ذات تقاليد جاهلية وثنية))^(١) لم يستطيعوا التخلص منها، بل تشبثوا بها؛ لأنها تمثل مجدهم وأيام عزهم؛ فعملوا على إحياء الكثير مما نهى عنه الدين الحنيف الذي وجه السلوك الإنساني وجهة توقر الإنسان، وتعلي شأن القيم والأخلاق في العمل والقول حين نهى عن الابتذال في الشعر، والإيغال في المس بكرهية الإنسان، فقد أعادوا مسار الشعر إلى ما قبل الإسلام حين أثاروا ((العصبية بعد أن أخدم الإسلام ناراها، وارثوا العداوة بين الشعراء، وأثاروا بينهم عاصفة من التهاجي والإقذاع، حتى يصرفوا الناس عما أحدثوه من أحداث، وحتى يبعثوا روح الجاهلية الأولى، التي كان لهم فيها مجد عريق، وشرف ورياسة، وقد كثرت المناقضات الشعرية في هذا النوع، وطمى سيلها، وهي التي نسميها بالمناقضات الهجائية ولا يقصد بها إلا المباراة في فنون الهجاء المقذع والتباهي بمجد الجاهلية واحسابها وأيامها، ونبش ما دفنه الإسلام من مثالب القبائل في عهودها الأولى))^(٢)، وليت الأمر توقف عند هذا الحد، ولكنه تجاوز كل المحاذير المنهي عنها عرفاً وديناً حين أصبح الهجاء ضرباً من ضروب اللهو والعبث إلى حد الإيغال بما يחדش الحياء، وذلك بمباركة الدولة من أجل سلب كل ما يثير حفيظة العربي الأصل، وذلك بتعويده على سماع هذا اللون من الهجاء المتناول لأقدس القيم عند العربي، ومن أهمها المرأة؛ لترويض الناس وإخضاعهم لما يريده السلطان؛ فصار تناول الأعراس، وقذف المحصنات أمراً مألوفاً، ((ويدل سكوت السلطة على ذلك أن لها مآرب سياسية فيه، ويدل على أن ذوقاً معيناً كان يسود أوساطاً معينة في المدن، وبخاصة الأرستقراطية منها))^(٣)؛ وبهذا تجاوز الهجاء في هذا العصر حدود هجاء الجاهليين الذي كان نزيهاً في معظمه، ((ولم يألف فيه الشاعر

معاني الفحش والتشهير كما استمرأها فيما بعد شعراء العصر الأموي وأضرابهم أمثال جرير والفرزدق^(٤) اللذين جعلوا المرأة غرضاً رخيصاً، فلم يتورعا عن هتك ستور المحصنات، وقذف الكريمات منهن بأبشع البذاءات متجاوزين بذلك ما وضعه أئمة المسلمين - الذين استلهموا روح الإسلام وتعاليمه - من قوانين تنظم حياة المرأة^(٥)؛ من أجل الفوز بالحظوة عند السلطان الذي كان يعمل على إنكاء نار الهجاء بين الشعارين الصديقين، فهذه الصداقة بينهما تكشف لنا بجلاء أن هذا الهجاء مصطنع غير نابع من عداء حقيقي فهما من قبيلة واحدة، ولم نجد سبباً حقيقياً لهذه المهاجاة التي دامت طويلاً، ونرى أن هذه الدوافع لا تخرج عن دائرة الوقوع في المطامع الدنيوية، والفوز بهذا اللون من التجديد في هجاء الآخرين بنسائهم، وإرضاء العاملين على استمرار هذه المعركة بين الشعارين، وهذا ما يخالف نظرة الإسلام الفلسفية التي وضعت المرأة في مكانتها المرموقة، ومكانها الفعال الذي ينأى بها عن الاحتقار، فقد حرص المسلمون حرص آباؤهم، وازدادوا في ذلك في توقيير المرأة، وتعظيم شأنها لا خوفاً من القصاص فحسب، بل تديناً وتقوى^(٦). لكن المرأة في هذا العصر سلّبت الكثير مما منحها الإسلام من حقوقها الاجتماعية، ولا سيما على ألسنة شعراء النقائص الذين جعلوها عرضة لأهوائهم الشخصية ونزعاتهم الشريرة؛ فبهجائهم إياها أرادوا إلحاق الأذى بالفرد أو الأسرة، أو القبيلة، فهذه التي جعل الله الجنة تحت أقدامها صارت وسيلة رخيصة؛ لإثارة الضحك والسخرية والاستهزاء بكشف عوراتها، والاستمتاع الرخيص بما رسمه شعراء النقائص لأعضاء جسدها الذي قدسه الإسلام، وحافظ على صونه، وإذا حاول الباحث أن يتمس منفعة في تلك النقائص، فلا يجد غير كونها وثيقة تاريخية كشفت لنا عما وصل إليه الذوق العام في أمصار الدولة من الانحدار والتردي، والابتعاد عن أصالة العربي المحافظ الذي يرى في الدفاع عن المرأة والتضحية من أجلها قيماً علياً، وعلى الدارس أن يغوص ما وراء الألفاظ للظفر بالحجة الراسخة، ومقارعة الفكرة بالأفكار، والرأي بالآراء؛ الأمر الذي يجعل^(٧) (الأفكار تتعرض لمزيد من الفحص والمقارنة والاختبار. ثم أن ذلك أعطى كل فكرة جديدة رصيذاً معرفياً من الموروث الثقافي يساعدها على احتلال موقع مأمون في النسيج المعرفي الإنساني)^(٧)؛ ولذا فإن اختيارنا لموضوع البحث لم يكن من أجل الوقوف على مبتذل الكلام بهجاء المرأة، إنما غايتنا أن نتبحر في بواطن شواهد هذا اللون من الهجاء والخروج بدراسة جديدة تنحو منحى جديداً عما سبقها في مثل هذه الدراسات.

دوافع الهجاء بالمرأة في العصر الأموي:

الجاهلي كان بسبب الوضع المضطرب بين قبائل العرب من غارات وخصومات لها أسبابها؛ فهم يفضلون موت البنت على سببها واسترقاقها؛ لأنها تمثل شرف أسرته، وقبيلتها، فضلاً عن أن الوأد لم تكن جميع القبائل تمارسه، ولا يعني هذا أننا نقر بهذا الحل، ولكن ما نريد إثباته هو حرمة المرأة، والخوف عليها من العبودية والامتهان، ((فقد كانت المرأة آنذاك موقرة، ففضلاً عن تعهدا أعمال المنزل، وتنشئة الأبناء، فقد ساهمت مع الرجل في مجالات كثيرة، فمن النساء الشاعرة والعاملة في التجارة، والمشاركة في الحرب، بإذكاء حماس المقاتلين ورعاية مصابيحهم، ولقسم منهن حق اختيار الزوج ومفارقتة^(٨)، ولم تكن هذه الحرية المحدودة - بسبب التقاليد والأعراف

من المعروف أن الهجاء يهدف إلى سلب المهجو فضائله، وتشويه صفاته المحمودة؛ بسبب خصومة فردية، أو قبلية، وكان الهجاء قبل هذا العصر ينصب على الخصوم من الرجال في الأعم الأغلب، ونادراً ما نجد الهجاء يتعرض إلى النساء، ولكننا في هذا العصر وجدنا شعراء النقائص ينصبون بهجائهم على المرأة بحجة الحط من قدر ولاتها، أو حمايتها، وهذا ما يشين رجولة الشاعر، فالرجل لا يقارع إلا الرجل بالسيف، أو باللسان، وهذا ما دعانا إلى البحث في دواعي الهجاء بالمرأة التي كانت لها حرمة عند العرب جاهلية وإسلاماً، وعلى مر العصور، وقد يعترض معترض محتجاً بقضية وأد البنات، فالوَأد في العصر

فرقة، أو جماعة لها شعراؤها الذين كانوا يمثلون وسائل أعلام ودعاية لمعتقداتهم، وأفكارهم، وكان الهجاء أمضى سلاح؛ لكشف معائب الخصم، ونشر مخازيه، وتسفيه أرائه، والخط من قدره، فقد عمد شعراء الهجاء إلى ابتكار أساليب جديدة تثير شغف المتلقين موظفين ألفاظا ومعاني موهلة بالفحش، والإقذاع للنيل من الخصم، وكانت المرأة من أهم وسائل الإثارة فوقعت ضحية هذا الاضطراب، وهذا ما يتضح لنا في مسار البحث.

٣- محاولة النيل مما يقده العرب والمسلمون، فلا يخفى على أحد أن النيل من مقدسات الآخرين يثير حفاظهم؛ لشدة إيلاهم، وأثر وقعه في النفوس، وذلك لتمسك الإنسان الشديد بما يقده، والمرأة عند العرب تمثل قيمة عليا من قيمهم، فالذب عنها والتضحية من أجلها يعد شرفا ومجدا، فالعربي يتفانى من أجل صون حرائره، ومنع الحيف عنهن بأعز ما يمتلكه الإنسان، فالمساسس بها يعني النيل من شرف الأسرة، أو القبيلة، والخط من قدرها، وهذه فضيحة لا يمكن للعربي أن يسكت عليها، ويعد تقاعس الرجال بالدفاع عن حرمهم عارا ما بعده عار، ومن هذا ما نسمعه على لسان الفرزدق هاجيا جريرا:

وَلَمْ تَمْنَعُوا يَوْمَ الْهَدْيِ بِنَاتِكُمْ

بَنِي الْكَلْبِ، وَالْحَامِي الْحَقِيقَةَ مَاتِعُ

غَدَاةَ أَتَتْ خَيْلُ الْهَدْيِ وَرَاعَكُمْ

وَسُدَّتْ عَلَيْكُمْ مِنْ إِرَابِ الْمَطَالِعِ

هُمْ قَارِعَوْكُمْ عَنْ فُرُوجِ بِنَاتِكُمْ

ضَحَى بِالْعَوَالِي وَالْعَوَالِي شَوَارِعُ

فَبِتَّنْ بَطُونًا لِلْعَضَارِي طِبَّ بَعْدَمَا

لَمَعْنَ بِأَيْدِيهِنَّ وَالنَّقْعُ سَاطِعُ

إِلَيْكُمْ فَلَمْ تَسْتَنْزِلُوا مُرْدَفَاتِكُمْ

وَلَمْ تَلْحَقُوا إِذْ جَرَدَ السَّيْفُ لَامِعُ

بَكَيْنَ إِلَيْكُمْ، وَالرَّمَا حُ كَأَنَّهَا

مَعَ الْقَوْمِ أَشْطَانُ الْجَرُورِ النَّوَارِعُ

الاجتماعية- متأتية من فراغ إنما ((احترم الجاهلي المرأة ومنحها مثل هذه الفرصة؛ فلأنها حافظة لنسبه الذي بنى عليه عصبته القبلية؛ لذا فقد تزوج أكثر من واحدة من خاصته صونا لذلك النسب من أن يخرج عن عمود القبيلة، وكانت طريقته في الزواج الطريقة نفسها المتعارف عليها التي أقرها الإسلام إلا أن لقسم من الجاهليين وفي حدود ضيقة طرقا أخرى في الزواج تقترب أحيانا من الإباحية، وهي على أية حال صور للشذوذ لا يخلو منها أي مجتمع مهما بلغ من الرقي))^(٩)، ولما جاء الإسلام حرم الكثير من العادات والتقاليد الجاهلية، ومنها وأد البنات^(١٠)، ورفع من شأن المرأة محافظا على كيانها؛ لأهمية تأثيرها في تكوين الأسرة وبناء المجتمع الجديد القائم على العدل والمساواة، وقد شغلت المرأة حيزاً متميزاً في شعرنا العربي، ولم تنتهك حرمتها مثلما انتهكت على لسان شعراء النقائص، ولا سيما جرير والفرزدق، ففي ((هذا الشعر جنابات منكرا على الأخلاق والأعراض والدين...، وانه مرآة صادقة لأخلاق هذه البنات من العرب))^(١١) في العصر الأموي، إذ أصبح الهجاء بالمرأة أمراً مألوفاً في حواضر الدولة الأموية، وكان لهذا الشعر جمهوره المترنح في غمرة بداعات هذين الشاعرين اللذين أوغلا في كشف عورات الكريمات بشكل مقزز، ولا بد لهذا الضرب من الهجاء دوافعه التي يمكن حصرها فيما يأتي:

١- الابتعاد عن روح الإسلام، فقد اضطربت الأحوال في العصر الأموي، وانشغل الناس بفوضى الفتن الناجمة عن تناحر الفرق والأحزاب والجماعات التي أدت الى تمزيق وحدة المسلمين، الأمر الذي أدى إلى ردة فعل في النفوس أضعفت لديهم الوازع الديني والأخلاقي، فصار الإنسان يعيش ليومه محاولاً سد فراغه بما ينسيه هموم ما حل بالمجتمع الإسلامي غير عابه بما ينتظره من حساب، أو عقاب في اليوم الآخر.

٢- التشوق إلى عنصر الإثارة والتجديد في الهجاء، فقد اخذ الشعر في هذا العصر مسارا لم يألفه العرب من قبل، إذ أصبح سلاحا تتقاتل به الفرق والأحزاب السياسية، فكل

دَعَتْ يَالَ يَرْبُوعَ، وَقَدْ حَالَ دُونَهَا

صُدُورُ الْعَوَالِي وَالذُّكُورُ الْقَوَاطِعُ

فَأَيَّ لِحَاقٍ تَنْظُرُونَ، وَقَدْ أَتَى

عَلَى أَمَلِ الدَّهْنِ النِّسَاءُ الرِّوَاضِعُ

وَهُنَّ رُدَافِي، يَلْتَفِتْنَ إِلَيْكُمْ

لَا سَوْقَهَا خَلْفَ الرَّجَالِ قَعَاقِعُ^(١٢)

فهو يعيره، وقومه بعجزهم عن استنقاذ نسائهم من أيدي الأعداء، وهن يستغثن بهم؛ ولهذا فقد سلك شعراء النقائض طريقا جديدا، وهو هجاء الآخرين بنسائهم؛ لأنه أكثر إيلافا في نفس الخصم، واشد إثارة لحفيظة المهجو.

٤- الترف المفرط، فقد أخذ الفتور يدب في نفوس الكثير من أهل الحواضر في هذا العصر بسبب الترف المفرط؛ فصار الناس منشغلين بما يستمتعون به، ويأنسون إليه إلى حد التميّع الذي أنسى العربي حياة البداوة القائمة على القوة والصلابة، ومغالبة الصعاب، فأصبح همهم البحث عن مجالس اللهو والعبث، وخير ما يمثل هذه المجالس التراسق بالهجاء بين الشعراء، ولا سيما جرير والفرزدق، فقد أصبح الهجاء بينهما ضربا من ضروب اللهو والعبث، فأخذ لونا جديدا يمكننا أن نطلق عليه الهجاء اللاهي الذي يتسم بأقبح الألفاظ، وأفحش المعاني، فهو لا ينم عن عداء حقيقي، أو خصومة بينهما، إنما غايته توفير المتعة للمتلقين، وإثارة الضحك والسخرية، ووسيلتهم بذلك رمي المحصنات، والتعريض بهن من دون الرجوع إلى مروءة العربي، وروح الإسلام متجاوزين كل حدود الأخلاق والأدب، وكل هذا يجري على مرأى ومسمع القائمين على أمور المسلمين، والأعجب من هذا أن المتلقين يطربون ويلهبون اكفهم من التصفيق لهذه الأقوال البذيئة، وكأنهم لم يلدوا من أرحام نساء، وليس لهم أزواج، أو بنات، أو أخوات، فهل سمعت أقبح وأشنع من قول جرير هاجيا البعيث بأمة:

أُمُّ الْبَعِيثِ كَأَنَّ حُمْرَةَ بَطَّرَهَا

رِنَّةُ الْمُغَدِّ يُبَيِّنُهَا الْجَزَارُ

وَتَقُولُ إِذْ رَضِيَتْ وَأَرْضَتْ سَبْعَةً

لَا يَغْضَبَنَّ عَلَيْكُمْ الْبَيَّزَارُ

إِنْ تَكْفِ أُمَّكَ يَا بَعِيثُ فَرُبَّمَا

صَدَرَتْ وَمَرَّنَ بَطَّرَهَا الْإِصْدَارُ

إِذْ كَانَ يُعْبِئُهَا وَأَنْتَ حَزَّورٌ

عَلِجَا ضَبَارَةَ بَغْتَرٌ وَشَقَارُ^(١٣)

ولو أمعنا النظر في تمادى الشاعرين في هذا الهجاء المقذع؛ لوجدنا أن الجمهور كان هو الداعم الرئيس، والمشجع المتحمس لهذه البذاءات.

ونستطيع القول: إن الشاعرين كانا يدركان أن لهما جمهورا يتشوق لسماع هذه البذاءات فد((المؤلف يكتب وفي ذهنه قارئ ما، قارئ يعرفه المؤلف، ويخاطبه ويتعامل معه، بل يحدث أن الكاتب لم يكتب النص إلا من أجل ذلك القارئ، بطلب منه، أو لمواجهة. فالفرزدق وجرير يقولان نقائضهما وفي ذهن كل واحد منهما مستقبل معين وجمهور يعيانه ويعرفاته. والقارئ هنا يحتل ذهن المؤلف ويتحكم فيه))^(١٤)، وقد أمنا جانب السلطة الأموية التي غضت الطرف عن التصدي لمثل هذا الهجاء الفاحش، وباركت فيه؛ لإلهاء الناس وإبعادهم عن الاشتغال بالسياسة والتحزب؛ لتخلو لهم الساحة السياسية تاركين الرعية غارقة بهذا اللون من التهاجي، والمشاحنات، فمن مصلحتهم أن ينشغل الناس بأمر آخرى غير الخوض في أمور الأحقية بالحكم وسياسة الدولة، ولا يهمهم حتى إذا تصارعت القبائل فيما بينهما ما دام الأمر لا يمس رأس السلطة، فكلما دب الضعف في أوصال الأمة؛ استتب الأمر للحكام، وخضعت لهم الرقاب، وهذا ما تحقق للأمويين، فقد شهد العصر الأموي نوعا من استقرار الأوضاع الاجتماعية والحضارية، وتطورها وازدهارها وتحررها، وقد فتن الناس بمناهج الحياة وزينتها من كل نوع^(١٥) إلا أن هذا

الشاعرين، فكل منهما جعل من أم صاحبه دمية عارية مشوهة لدى المتلقي، فهذا الفرزدق يسلق أم جرير بنار بذاعته موعلا بالفحش في قوله:

جَاؤُوا بِحَقَّةٍ مُفْرِمِينَ عَجَانَهَا

يَحْدُوا الْأَتَانَ بِهَا أُجِيرٌ مَرْحَلٌ

وَقَفْتَ لَتْرَ جُرْنِي فَقُلْتُ لَهَا اِبْرُكِي

يَا حَقُّ أَنْتِ وَمَا جَمَعْتَ الْأَسْفَلُ

وَكَشَفْتَ عَنِّي أَيْرِي لَهَا فَتَجَدَّلْتُ

وَكَذَلِكَ صَاحِبَةُ الْوِدَاقِ تَجَدَّلُ

لَقِيَتْ أَخَا نَعْظٍ لَهَا مُتَبَدِّلًا

وَأَخُو الْمُفَاضِحَةِ الَّذِي يَتَبَدَّلُ

وَتَرَكْتُ أُمَّكَ يَا جَرِيرُ كَأَنَّهَا

لِلنَّاسِ بَارِكَةٌ طَرِيقٌ مُعْمَلٌ

وَكَأَنَّهَا كَمَرُ الْغَوَاةِ عَلَى اسْتِهَا

أَوْ رَادُ مَا سَقَّتِ النَّبَاجُ فَتَيْبَلُ

يَا حَقُّ مَا نُبِئْتُ مِنْ رَجُلٍ لَهُ

خُصْيَانٌ إِلَّا ابْنَ الْمَرَاعَةِ يَحْبَلُ^(١٧)

ما ذنب هذه الأم التي جعلها الفرزدق في أدنى درجات الابتذال؟ ولا بد لنا أن نتساءل ما معنى هذا الهجاء المبرقع بمزاح ثقيل؟ فهو هجاء غير جاد، إذ لم يجد الشاعر بأم خصمه منقصة فيهجوه بها غير هذه الصورة المبتذلة التي رسمها لها خياله من دون حق.

ولم يقل جرير بذاعة عن صاحبه بل تفوق عليه في ميدان الفحش والخنا، فهذا هو يرد على الفرزدق هاجباً أمه بقوله:

قَعَدْتُ فُقَيْرَةً بِالْفَرَزْدَقِ بَعْدَمَا

جَهَدَ الْفَرَزْدَقُ جَهْدَهُ لَا يَأْتَلِي

أَلْهَى أَبَاكَ عَنِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى

لِي الْكُتَائِفِ وَارْتِفَاعِ الْمَرْجَلِ

وَلَدْتُ فُقَيْرَةً قَدْ عَلِمْتُمْ خَبْنَةً

بَعْدَ الْمَشْيِبِ وَبَطْرُهَا كَالْمَنْجَلِ

الازدهار وافتتان الناس بزخرف الحياة كان عاملاً من عوامل ضعف الدولة الأموية وانهيارها على يد بني العباس.

انجاءات الهجاء بالمرأة في نقائض جرير والفرزدق:

كانت رياح هجاء الشعاعين جرير والفرزدق عاتية، وقد وصلت إلى كل نساء الطرفين، ولم يتورع احدهما عن رمي من تخطر بباله من نساء خصمه^(١٦)، فقد مس هذا الهجاء الأم، والزوجة، والبنت، والأخت، لا بل تعدى إلى العمات والخالات، والجدا، وسائر نساء القوم، وما يثير الاستغراب أن الشعاعين قد صبا جم هجائهما على نساء قبيلتهم؛ لانهما من تميم، وضحايا هذا الهجاء هن المحصنات من نساء هذه القبيلة، ولو فتشنا في غرض الهجاء في شعرنا العربي؛ لما وجدنا أفذع وأفحش من هجاء جرير والفرزدق بالمرأة، فلم يتركوا جزءاً من أجزاء جسد المرأة إلا كشفوه، بل أمعنوا بعرضه في القول على مسامع المتلقين حتى كأنهما قد اختصا بتشريح جسم المرأة، ورسم أعضائه التي نهى الإسلام عن كشفها، أو التلميح بها، وحين نعرض لشواهد من هذا الهجاء لا نريد إعادة التشهير بالمرأة، وتقديمه للأجيال الجديدة؛ ليتخذوا منه متعة لإشباع حاجات رخيصة، إنما أردنا إمطة اللثام عما تعرضت إليه المرأة في نقائض الشعاعين من ابتذال، وقذف بغير حق، فقد جعلنا منها سلعة رخيصة في مجالس الشعر الذي تغنى بالمرأة كثيراً حتى جعلها رمزا للخصب والعتاء، وديمومة الجنس البشري، فقد أصبح الهجاء في تلك النقائض مجرد لعبة سخيفة بعيدا عن الخلق الكريم وسمو المبادئ.

١- الهجاء بالمرأة (الأم):

وقعت الأم المقدسة ضحية لمهارة الشعاعين، فقد أمطر كل واحد منهما أم خصمه المصطنع بسهام هجاء التي وصلت إلى ما حرم الله من مواضع جسد هذه المحصنة التي ليس لها ناقة ولا جمل فيما يجري بين

جعل جرير أمّ الفرزدق جسراً؛ ليصل بهجائه غيرها
إلى ابنتها(جعثن) إذ جعل جل هجائه عليها بكلام تصطك
منه الأسماع، ويندى له الجبين، ولكن العجيب في هذا
الأمر أن قبيلة الشعارين لم تحرك ساكناً لمنعهما من الطعن
والتشهير!

ولو سلمنا أن هذه القبيلة أدرت عدم جدية هذا
الهجاء، فلماذا السكوت عن القبح بنساء القبيلة بهذا الشكل
الساخر؟!

ولا يخفى على أحد أن القبيلة إذا خرج احد أبنائها
على عاداتها وتقاليدها، أو جلب لها عارا؛ فأقل ما يعاقب
به الخلع من القبيلة، وقد حدث هذا كثيرا عند العرب.
ويبدو لنا أن سكوتها ناجم عن قرب الشعارين من سلطة
الدولة.

٢- الهجاء بالمرأة(الأخت):

يغار الرجل على أخته أكثر من غيرها، فهي سليطة
والديه، وما يلحق بها من عار يكون جامعا لأمه وأبيه؛
ولهذا فإن الهجاء بالأخت له وقع شديد في نفس المهجو،
وقد ألح جرير على هجاء الفرزدق بأخته(جعثن)^(٢١)، إذ
نعتها بأقبح النعوت، وأبشعها مع علمه بصلاح هذه المرأة
وعفتها^(٢٢)، ومن بذاعة قوله في (جعثن):

وأفأك غدوك بالزُبَيْرِ على منى
ومجرّ جعثنكم بذات الحرمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه
وعجان جعثن كالطريق المعمل
أين الذين عددت أن لا يدركوا
بمجرّ جعثن يابن ذات الدمل
أسلمت جعثن إذ جبر برجلها
والمنقري يدوسها بالمنشل
تهوي استنها وتقول يال مجاشع
ومشق نعبتها كعين الأقبل^(٢٣)

بزود أرقصت القعود فراشها
رعات عنبلها الغدفل الأرعل
أشركت إذ حمل الفرزدق خبثه
حوض الحمار بليثة من نبتل^(١٨)

إن هذين النصين يكشفان لنا صورة متخاصمين في
حلبة الهجاء التي جمعت بينهما من دون عداء سابق، ولا
ضعينة دفيئة، وهما يتنافسان على قصب السبق بهذا الجدل
الذي خرج عن الإطار المألوف، فهو جدل غايته تحقيق
ظفر أحدهما على الآخر، ونيل الحظوة عند الجمهور.
وقد يجمع الشاعر الهجاء في هذه النقائض بين الأم
والأب كما في قول الفرزدق:

ولئن جدعت ببظر أمك أنفها
لتنال مثل قديمهم لا تفعل
إنا لنضرب رأس كل قبيلة
وأبوك خلف أتانه يتقمل
يهز الهرانع عقده عند الخصى
بأدل حيث يكون من يتدلل^(١٩)

و يجمع الشاعر الهجاء أيضاً بين الأم والأخت معا
كما في قول جرير:

أم الفرزدق عند عقر بغيرها
شق النطاق عن است صب مذلق
هلا طلبت بعقر جعثن منقرا
وبجرها وتركت ذكر الأبلق
تركوا بأسفل إسكتيها ناطقا
والمأبضين من الخزير الأورق
وكان جعثن كلفت فخارة
يغلي بها تنور جص مطبق
لا خير في غضب الفرزدق بعدما
سلخوا عجانك سلخ جلد الرودق
تدعو الفرزدق والأشد كأنما
يكوي استنها بعمود ساج محرق^(٢٠)

حفلت أيام العرب بحروب مدمرة من أجل امرأة، فكيف إذا كان الهجاء قد نال من نساء القبيلة عامتهن، فالمرأة أهم شيء في حياة الرجل، فهي تستحق العناية، وتستوجب التضحية؛ لما لها من مكانة متميزة في القبيلة حتى أن قسماً من العرب انتسبوا إلى أهم؛ فسُموا باسمها^(٢٦)، ولكن الشعارين قلبا هذا المبدأ حين جعلوا النساء وسيلة رخيصة؛ لإرضاء الجمهور؛ فكلما أمعنا بالإقذاع، والفحش؛ لبقيا تشجيعاً أكثر، وإعجاباً أكبر، وهاك ما قاله جرير هاجياً الفرزدق بنساء مجاشع.

إِذَا أُسْفِرَتْ يَوْمًا نِسَاءً مُجَاشِعِ
بَدَتْ سَوْءَةً مِمَّا تُجِنُّ الْبِرَاقِعُ
مَنَآخِرُ شِثَاتِهَا الْقِيُونُ، كَأَنَّهَا
أُنُوفُ خَنَازِيرِ السَّوَادِ الْقَوَابِعُ
مِبَاشِيمٍ عَن غِبِّ الْخَزِيرِ كَأَنَّمَا
تُصَوَّتُ فِي اعْفَاجِهِنَّ الضَّفَادِعُ^(٢٧)

وإذا كان جرير قد نعت نساء مجاشع بالسوءة وسوء الخلق، فهذا الفرزدق يوغل بالفحش حين جعل من حرائر كليب بغايا يعرض أنفسهن على الرجال بأبخس ثمن في قوله:

وَتُؤَسِّي نِسْوَةً لِبَنِي كَلَيْبِ
بِأَفْوَاهِ الْأَزْقَانَةِ مَقْعِيَاتِ
زَوَايَا سِكَّةٍ نَبَتَتْ حَدِيثًا
بِأَخْبَثِ نَبْتَةٍ شَرِّ النَّبَاتِ
بِأَحْرَاحِ خَبِيثَاتِ الْمَلَاقِي
شَمِطْنِ وَهَنْ غَيْرِ مُخْتَنَاتِ
يَبْعَنْ فُرُوجَهُنَّ بِكُلِّ فَلَسِ
كَبْبَعِ السُّوقِ خُذْ مِنِّي وَهَاتِ
تَخَالُ بِظُورِهِنَّ إِذَا أُنِخَتْ
عَلَى رِكَبَاتِهِنَّ مُخَوِّيَاتِ
أَيُّورِ الْخَيْلِ قَدْ سَقَطَتْ خُصَاهَا
بِأَطْرَافِ الْمَقَاوِزِ لَا غِيَابِ

ويبدو أن الفرزدق كان شديد الاعتزاز بأخته (جعثن)؛ لاستقامتها، وصلاحتها، ودينها؛ فقد ألح جرير على هجائها؛ ليثير حفيظة الفرزدق، ويلحق به أشد الأذى النفسي.

٣- الهجاء بالمرأة (الزوجة):
دخلت سهام هجاء الشعارين إلى مخادع زوجاتهما، فالتعريض بعفة الزوجة يريد به الشاعر الطعن بمروءة الزوج الرجل، وتلوّث سمعة أبناء الخصم؛ لأنها مصنع الرجال، وهي سبب من أسباب نجابة الأحساب والأنساب، وكان العربي يبحث عن الزوجة ذات الأرومة والحسب الشريف، فالشاعر الهجاء حين يهجو الزوجة يرمي عصفورين بحجر واحد؛ لأنه ينال من أهل الزوجة، والزوج وأهله، فهذا جرير يهجو الفرزدق بزوجته (النوار) طاعنا بعفتها، واستقامتها بقوله:

فَبَاتَتْ نَوَارُ الْقَيْنِ رِخْوًا حِقَابُهَا
تَنَازَعُ سَاقِي سَاقِهَا حَلَقَ الْحِجْلِ
تُقَبِّحُ رِيحَ الْقَيْنِ لَمَّا تَنَآوَلَتْ
مَقْدَ هِجَانٍ إِذْ تُسَاوِفُهُ فَحْلٌ^(٢٤)
ولا يهدأ جرير عن إذكاء نار هجائه للفرزدق، فما هو يهجو (النوار)، و(جعثن) محاولاً التغلب على صاحبه في النيل من زوجته، وأخته في آن واحد كما في قوله:

نَامَ الْفَرَزْدَقُ عَن نَوَارِ كَنُومِهِ
عَن عَفْرِ جِعْثِنَ لَيْلَةَ الْإِخْفَارِ
قَالَ الْفَرَزْدَقُ إِذْ أَتَاهُ حَدِيثُهَا
لَيْسَتْ نَوَارُ مُجَاشِعِ بِنَوَارِ
تَدْعُو ضُرَيْسَ بَنِي الْحَتَاتِ إِذَا انْتَشَتْ
وَتَقُولُ وَيَحْكُ مَنْ أَحْسَّ سِوَارِي
إِنَّ الْقَصَائِدَ لَنْ يَزْكُنَ سَوَانِحًا
بِحَدِيثِ جِعْثِنَ مَا تَرْتَمَ سَارِي^(٢٥)

٤- هجاء القبيلة بنسائها:
لم يكتف الشاعران بهجاء الأم والأخت والزوجة والأقارب، بل عمَّ شرُّ هجائهما نساء القبيلة جميعهن، وقد

وقد جمع الفرزدق بين عمات جرير وخالاته معيراً إياه
بكونهن يرعين الإبل، ويرتكبن مع الرعاة الفواحش كما في
قوله:

كَمْ خَالَةٍ لَكَ يَا جَرِيرَ وَعَمَّةٍ
فَدَعَاءٌ قَدْ حَلَبَتْ عَلِيَّ عِشَارِي
كُنَّا نَحَازِرُ أَنْ تَضِيْعَ لِقَاحُنَا
وَلَهَا إِذَا سَمِعَتْ دُعَاءَ يَسَارِ
شَغَارَةَ تَقْدُ الْفَصِيلَ بِرِجْلِهَا
فَطَّارَةَ لِقَوَادِمِ الْأَبْكَارِ
كَانَتْ تُرَاوِحُ عَاتِقِيهَا عُبَّةً
خَلْفَ اللَّقَاحِ سَرِيْعَةَ الْإِدْرَارِ^(٣٢)

وقد توعد الفرزدق ابنة جرير (أم غيلان) بداهية دهياء
بعد أبيات هجا فيها نساء لجرير كما في قوله:

وَمَنْ قَبَّلَهَا حَنَّتْ عَجْوَزُكَ حَنَّةً
وَأَخْتُكَ لِلأَدْنَى حَسِيْنِ النَّوَائِحِ
تُبْكِي عَلَيَّ زَيْدٌ، وَلَمْ تَلْقَ مِثْلَهُ
بَرِيْنًا مِنَ الْحُمَى صَحِيْحِ الْجَوَائِحِ
تُبْكِي وَقَدْ أَعْطَتْكَ أَثْوَابَ حَيْضِهَا
فَقُبُّحَتْ مِنْ بَاكِ عَلَيْهَا وَنَائِحِ
وَلَوْ لَقِيْتُ زَيْدَ الْيَمَامَةِ أَرْزَمْتَ
وَأَعْطْتَ بِرِجْلِي سَمْحَةَ غَيْرِ جَامِحِ
وَلَوْ أَنَّهُ يَا ابْنَ الْمَرَاغَةِ حُرَّةً،
سَقَّتْكَ بِكَفِيْهَا دِمَاءَ الذَّرَّاحِ
وَلَكِنَّهَا مَمْلُوكَةٌ عَافَ أَنْفُهَا
لَهُ عَرَقًا يَهْمِي بِأَخْبَثِ رَاشِحِ
لَنْ أُنْشَدْتَ بِي أُمَّ غَيْلَانَ أَوْ رَوْتَ
عَلَيَّ، لَتَرْتُ تَدَنَّ مِنِّي بِنَاطِحِ^(٣٣)

نلاحظ أن الجدة والعمة والخالة والبنات كانت أقل
عرضة للهجاء من قبل الشعراء المتهاجين، ولعل ذلك
ناجم من أن أذى هجائهن أقل وطأة على الخصم من هجاء
الأم والأخت والزوجة.

كَبْرُنَ وَهَنَّ أَرْزَى مِنْ قُرُودِ

وَأَنْجَسُ مِنْ نِسَاءِ مُشْرِكَاتِ^(٢٨)

لعمري ما عرف شعرنا العربي مثل هذا الانحطاط
في غرض الهجاء، فلم يتأثم جرير والفرزدق من هتك
حجب نساء العرب بأسلوب فج مبتذل يصعب على لسان
أراذل الناس قوله، فالنفاض قد ضمت بين دفتيها شراً
جديداً في الهجاء لم يعرفه الذوق العربي والإسلامي من
قبل، إذ ((كانت مجافية للروح الإسلامية التي تنهى عن
الإفذاء والفحش وذكر السوءات، والعورات، وتنهى عن
التفاخر بالاحساب والأنساب والآباء والأجداد، فقد بنيت
النفاض على الشر وأحيت العصبية القبلية))^(٢٩)، ففي هذه
النفاض كانت النساء أكثر تعرضاً إلى الهجاء المقذع من
الرجال؛ لأنهن اتخذن وسيلة لهجاء الرجال، فصرن - على
لسان جرير والفرزدق - بضاعة رخيصة، وملهاة للقاصي
والداني.

٥ - الهجاء (بالجدات والعمات والخالات والبنات):

إن هذه الفئة من أقارب المهجو من النساء كانت قد
نالت حظها من هذا التراشق الرخيص بين الشعراء.

لقد أبعد جرير سهمه حين أصاب به جدة الفرزدق
لأبيه (أم غالب) ناعثاً إياها بأبشع النعوت كما في قوله:

فَدِينُكَ يَا فَرَزْدَقُ دِينُ لَيْلَى

تَزُورُ الْقَيْنَ حَجًّا وَاعْتِمَارًا

فَظَلَّ الْقَيْنُ بَعْدَ نِكَاحِ لَيْلَى

يُطِيرُ عَلَيَّ سِبَالِكُمُ الشَّرَارِ^(٣٠)

أما عمة الفرزدق (سكينة)، فقد جعلها مصابة بداء الشبق
في قوله:

قَامَتْ سَكِينَةُ لِلْفُحُولِ وَلَمْ تَقُمْ

بِنْتِ الْحَتَاتِ لِسُورَةِ الْأَنْفَالِ

وَدَّتْ سَكِينَةُ أَنْ مَسْجِدَ قَوْمِهَا

كَانَتْ سَوَارِيَهُ أُيُورَ بَغَالِ^(٣١)

تبين لنا مما تقدم أن ضحايا معركة الهجاء بين جرير والفرزدق النساء اللواتي تحتم المروءة، وقيم العرب والإسلام تبجيلهن والحفاظ على كرامتهن، لكن الشعارين قد أطلقوا العنان للسانيهما للنيل من النساء من دون تأثم، أو حياء، أو مروءة، فقد أتيا بلون جديد من الهجاء، لئنه لم يكن، فقد كان هذا الهجاء وبالأعلى على الشعر العربي، لما فيه من تدنٍ وخروج على الذوق العام، والخلق الرفيع الذي تتمسك به قبائل العرب، ويحث عليه ديننا الحنيف.

لغة الهجاء بالمرأة في نقائض جرير والفرزدق:

يتفرد غرض الهجاء بلغته التي تميزه من غيره من الأغراض الأخرى لخصوصية معانيه، وألفاظه، ودلالاته، وإذا أردنا تضيق دائرة هذا الغرض، - حين نقف عند اتجاه جديد فيه نعني به (الهجاء بالمرأة) - فإننا سنجد لهذا الهجاء معاني وألفاظاً تختلف عن غيرها في هذا الغرض؛ لأنها تدل على لون جديد يفصح عن نزعة جديدة عند شعراء النقائض، ولاسيما جرير والفرزدق حين انتقلا بالهجاء من أفقه الواسع إلى دائرة ضيقة هي رمي المحصنات بألفاظ ومعانٍ ودلالات تخدم هذا اللون العابت في الهجاء، إذ تنصل الشعاران في هجائهما للمرأة عن كل ما هو عفيف، فقد جريا وراء كل معنى بذوي يحط من قدر المرأة ومكانتها، ويمكننا أن نطلق على هذه المعاني (معاني الإباحة والفسوق والتهتك)، فقد وصل جرير والفرزدق في الهجاء بالمرأة إلى حد التمرد على القيم والأخلاق المتعارف عليها عند العرب حين خرجا بالهجاء عما هو مأثوف، إذ كانت ألفاظهما ومعانيهما موغلة في الفحش والبذاءة، فمعجم الشعارين في الهجاء بالمرأة حافل بمعانٍ وألفاظ يرفضها الذوق العام، ويعرض عنها الوجه الحي، وينبذها كل ذي إنصاف، وكانت كلها تدور حول أجزاء جسد المرأة وتقبيحها إلى حد الرفض، فقد مارس الشعاران إبداعاتهم اللغوية في هذا المضمار على جسد المرأة جاعلين منه (معرضاً بلاغياً تمارس فيه الثقافة

مهارتها الإبداعية اللغوية، وتستخدمه من أجل هذه الغاية إلى درجة يبلغ معها التوظيف البلاغي للجسد المؤنث حد الغيرة والاستنكار على أي توصيف بلاغي للجسد))^(٣٤)، وقد قبَّح الشعاران ذلك الجسد الجميل الذي تغنى به الشعراء، فحولوه إلى مشاهد مقرفة تشمئز منها النفوس، ومن يطالع نقائض جرير والفرزدق، سيدرك أن لهذا اللون من الهجاء معجماً خاصاً به يميزه من غيره، فإذا كان الرجل يعيرُ بالجبين، أو البخل، أو الدمامة، أو سوء الخلق؛ فإن المرأة على لساني جرير والفرزدق قد وضعت في أقبح مشرحة؛ وجدنا فيها جسد المرأة مشوها قد عبث به الشعاران أيما عبث، وهاك شاهداً فيه حشد من المعاني والألفاظ التي تميز هذا الضرب من الهجاء على سبيل المثال لا على الحصر كما في قول الفرزدق:

إِنَّ ابْنَ أُخْتِ بَنِي كَلْبِ خَالِهِ

يَوْمَ التَّفَاضُلِ أَلَمُ الْأَخْوَالِ

بَعْلُ الْغَرِيبَةِ مِنْ كَلْبِ مُسِكَ

مِنْهَا بِلَا حَسَبٍ وَلَا بِجَمَالِ

سُودِ الْمَحَاوِرِ سَيِّئَةٍ لَبَاتُهَا

مَنْ لَوْمَهُنَّ يُنَكِّنَ غَيْرَ حَالِ

كِكَلَابِ أَعْبَدِ ثَلَاةٍ يَتَّبَعُهُمْ

حَمَلَتْ أَجِنَّتَهَا بِشَرِّ فِحَالِ

يَعْوِينَ مُخْتَلَطِ الظَّلَامِ كَمَا عَوَتْ

خَلْفَ الْبَيْوتِ كِلَابُهَا لِعِظَالِ

يَرْفَعْنَ أَرْجُلَهُنَّ عَنِ مَفْرُوكَةٍ

مُقِّ الرُّفُوعِ رَحِيْبَةِ الْأَجْوَالِ

تَلْقَى الْأَيُّورَ بِظُورُهُنَّ كَأَنَّهَا

عَصَبُ الْفِرَاسِينَ أَوْ أُيُورُ بَغَالِ

تَغْلُو دِمَاءَ بَنِي الْمِرَاغَةِ فِيهِمْ

وَدِمَاؤُهُمْ وَأَبْيَكُ غَيْرُ غَوَالِ

يَسْلَحُنَّ أَنْتَنَ مَا أَكَلْنَ عَلَيْهِمْ

لَمَّا وَجَدْنَ حَرَارَةَ الْإِنْتِزَالِ (٣٥)

الشاعر. فهذا جرير يعطينا صورة بشعة لأم الفرزدق حتى يظهرها للمتلقى جرباء قذرة كاشفاً عن عورتها في قوله:

وَأَبْرَأْتُ مِنْ أُمِّ الْفَرَزْدَقِ نَاحِسًا
وَقُرْدُ اسْتَهَا بَعْدَ الْمَنَامِ تَثِيرُهَا^(٣٨)

ويبدو لنا أن جريراً كان أكثر إقذاعاً من صاحبه، فقد توافرت لديه مادة من المعاني والألفاظ القبيحة رمى بها نساء الفرزدق. ومنهن أخته (جعثن) التي رسم لها صورة قبيحة، فقد جعلها موطناً للرجال حين شبهها بالطريق الرب في قوله:

قَدْ تَعَلَّمُ النَّخَبَاتُ أَنْ فَتَاتَهُمْ
وُطِنْتُ كَمَا وَطِئَ الطَّرِيقُ الْمَهْبِغُ

نَبَّئْتُ جِعْثَنَ دَافَعَتْهُمْ بِاسْتَهَا
إِذْ لَمْ تَجِدْ لِمُجَاشِعٍ مَنْ يَدْفَعُ

وَجَدُوا لِعِجْثَنَ حِينَ قَبَّيْتُ اسْتَهَا
مِثْلَ الْوَجَارِ أَوْى إِلَيْهِ الْأَضْبَعُ

يَبْكِي الْفَرَزْدَقُ وَالِدَمَاءُ عَلَى اسْتَهَا
فُبْحًا لِنَتِكَ غُرُوبَ عَيْنٍ تَدْمَعُ^(٣٩)

نلاحظ أن هذه الصورة الفاحشة لا تصدر من نفسية سوية مهما كانت الأسباب الكامنة والدوافع وراء هذا الهجاء، ((ولاشك أن جريراً كان يذهب في هذا النوع من الهجاء، هذا المذهب، انتقاماً لنفسه، وتنقيساً عن كوامن غضبه، واستجابة لعقده النفسية، التي كانت تتحكم بنوازعه. فالفحش في هجائه مسألة فنية اضطر إليها من دون أن يكون في سلوكه فاجراً، أو متفحشاً، أو فاسقاً. وقد غلب عليه هذا اللون، فاشتهر به، وفاز به من دون غيره من الشعراء، فكان شاعر الهجاء بدون منازع))^(٤٠).

يتجلى لنا في هذا البحث أن الشاعرين قد طوعا لغتهما، لخدمة غايتهم المرجوة من هذا الهجاء، لإرضاء ذوق جمهورهما، فقد استطاعا أن يحزرا نجاحاً في هذا المنحى، حتى طبعاً بطابع خاص، فالمبدع يستطيع أن يتحكم بالسياق اللغوي جاعلاً إياه وراء السياق الملفوظ موظفاً بنية اللغة الأوسع التي تكشف لنا عن ثقافة مجتمع ما في حقبة ما^(٣٦)، وهذا ما وجدناه في لغة الشاعرين الذين اظهرا لنا ما وصلت إليه ثقافة المجتمع في العصر الأموي.

وتعمدنا ترك تثبيت الألفاظ القبيحة بأسمائها في هذا البحث؛ لنترك إلى المتلقي الوقوف عليها عند قراءته لهذا البحث.

صورة الهجاء بالمرأة في نقائض جرير والفرزدق:

المتعارف عليه في غرض الهجاء أن الشاعر يتعمد رسم صورة للمهجو تخالف ما هو مستحسن من صور الممدوح، فجلبها يظهر لنا المهجو بصورة البخيل، أو الجبان الذي يلوذ بغيره، أو الفار من ساحة المعركة، والمتقاعس عن نصرته قبيلته، أو قومه، والشحيح، وما إلى ذلك من الصور التي يرفضها المجتمع.

أما صور جرير والفرزدق في النقائض فقد جاءت مغايرة لما ألفه العرب من صور الهجاء، إذ كانت تنصب في الأعم الأغلب على الرجال الخصوم، والقبائل المعادية، لكن الشاعرين جعلوا المرأة موضوعاً لهجاء الأفراد، أو القبائل؛ فرسموا لها بشعرهم أبشع الصور، وأقبحها حتى غايروا تلك الصورة الجميلة التي رسمها الشعراء للمرأة، ولا سيما في الغزل العذري؛ فكانت صور النساء في النقائض مسخاً لجمال المرأة، وصفاتها التي حباها الله بها، وميزها بها من غيرها، فقد بالغ جرير والفرزدق في النقائض في تجسيم العيوب الحسية والنفسية مبالغةً يمجهها كل ذوق سليم، وقد أرادوا بذلك إشراك المتلقين الذين كانت تثيرهم هذه المبالغات التي اتخذت طابع الفكاهة والسخرية اللاذعة والتهمك المرير بنساء الخصم^(٣٧)؛ من أجل إلحاق أشد الأذى بالفرد، أو القبيلة التي انصب عليها هجاء

الخاتمة:

من يطلع على شعرنا العربي في هذا العصر يجد فيه وثيقة تاريخية تحمل الغث والسمين، والجيد والرديء، والمشرف وغير المشرف لحقبة مضطربة عاشها المجتمع وتفاعل معها، وحين يقدم الدارس جانباً من جوانب هذا الشعر لا يهدف إلى الحط من شعرنا العربي الذي سجل لنا الكثير من الوقائع والحوادث في مجالات الحياة المختلفة. إنما يريد إمطة اللثام عن هذا الجانب، أو ذاك بكل حيادية وموضوعية.

وليس عيباً حين يتناول الباحث موضوعاً كالهجاء بالمرأة في نقائض جرير والفرزدق، وما دامت النوايا سليمة، والهدف علمياً بحثاً؛ حتى يتسنى للقارئ الوقوف على هذا اللون من الهجاء؛ ليعرف دوافعه وكوامنه من النصوص الشعرية.

وقد كشفت لنا هذه النصوص جانباً من جوانب حياة المجتمع في هذا العصر، وما آل إليه من حالة الترف المفرط واللهو العابث الذي استقطب الكثير من أهل الحواضر الذين تغيرت أذواقهم، واهتزت قيمهم الأصيلة؛ فاقبلوا يستمعون إلى نقائض جرير والفرزدق الممتلئة بالفحش والسباب، والتعرض إلى النساء اللاتي حُصِنَ بعناية المجتمع العربي، وتمجيده لهنَّ على مرَّ العصور.

النتائج:

عند الشروع بالعمل في هذا البحث انتابتنا حيرة مشوبة بالقلق المزوج بالإصرار على إتمام هذا البحث، والحرص على تقديمه بين يدي المتلقين؛ لما فيه من كشف لتجربة جديدة في دراسة جانب من جوانب الهجاء، ولون جديد من ألوانه، ونعني به الهجاء بالمرأة في نقائض جرير والفرزدق، وقد أعاننا الله جل في علاه على انجاز هذا البحث الذي خرجنا منه بالنتائج الآتية:

ولم يكن الفرزدق أقل شأنًا من صاحبه في هذا الميدان، فها هو يرسم صورة قبيحة لنساء جرير يظهرهنَّ فيها بغايا مبتذلات في قوله:

جَزَعْتَ إِلَى هِجَاءِ بَنِي نُمَيْرٍ
وَحَلَيْتِ اسْتِ أُمَّكَ لِلرُّمَاتِ
فَأَبْصَرْنِي وَأُمَّكَ حِينَ أَرْمِي
مَشَّقَ عِجَانِهَا بِالنَّاقِرَاتِ
وَتُمْسِي نِسْوَةً لِبَنِي كَلْبِيبِ
بِأَفْوَاهِ الْأَزْقَةِ مُقْعِيَاتِ
زَوَايَا سِكَّةٍ نَبَتَتْ حَدِيثًا
بِأَخْبَثِ نَبْتَةٍ شَرِّ النَّبَاتِ
بِأَحْرَاحِ حَبِيثَاتِ الْمَلَاقِي
شَمِطْنَ وَهُنَّ غَيْرَ مُحْتَنَاتِ
يَبْعَنَ فُرُوجَهُنَّ بِكُلِّ فُلْسِ
كَبَيْعِ السُّوقِ خُذْ مِنِّي وَهَاتِ
تَخَالُ بُظُورَهُنَّ إِذَا أُنِيخَتْ
عَلَى رُكْبَاتِهِنَّ مَخْوِيَاتِ
أَيُّورَ الْخَيْلِ قَدْ سَقَطَتْ خُصَاهَا
بِأَطْرَافِ الْمَقَاوِرِ لِأَغْيَاتِ
كَبْرَنْ وَهُنَّ أَزْنَى مِنْ قُرُودِ
وَأَنْجَسُ مِنْ نِسَاءِ مُشْرِكَاتِ^(٤١)

يتبين لنا في موضوع صورة الهجاء بالمرأة أن جريراً، والفرزدق، قد تفردا في انتهاك الحرمات حين كشفا عورات النساء، وألحوا في وصفها بلغة مكشوفة، وواقعية سمجة، فعمدا على تسمية العورات بأسمائها الحقيقية من دون حياء بأسلوب شنيع ساخر مفضوح.

وإذا كان النقاد قد عوّلوا على انحراف نفسية جرير، فنحن لا نبرئ الفرزدق من هذا الانحراف فكلاهما يصدر عن نفسية معتلة، وغيظ مصطنع لا مبرر له غير الهاء الناس بهذه الخزعبلات.

وتحمسهم لسماعها، فضلا عن براعة عرضها،
وغرابية موضوعها.

٩- تحول هذا الضرب من الهجاء إلى حرفة احترفها
الشاعران؛ لإحراز تفوق احدهما على الآخر متأثرين
بأسلوب الجدل والمناظرة القائمين على الحوار.

الهوامش:

١- أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام،
الخوارج والشيعة/١١٢.

٢- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام/٥١٥، وينظر
التطور والتجديد في الشعر الأموي/١٧٢.

٣- الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة
الأموية/٢٦٥، وينظر: أدب السياسة في العصر
الأموي/٢٧٩-٢٨٠.

٤- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي/١٥١.

٥- ينظر: الجواري والشعر في العصر العباسي
الأول/١٦.

٦- ينظر: نظام حقوق المرأة في الإسلام/١٤٤، والمرأة
في القرآن الكريم/١٠٣، والمرأة في أدب العصر
العباسي/٣٠.

٧- المشاكلة والاختلاف/٥.

٨- أيام العرب وأثرها في العصر الجاهلي/٦٨.

٩- م.ن/٦٨-٦٩.

١٠- ينظر: التكوير/٨، ٩.

١١- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام/٥١٩.

١٢- كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق: ١١٤/٢-
١١٥.

١٣- م.ن: ٢/٢٢٤-٢٢٥.

١٤- تأنيث القصيدة والقارئ المتخلف/١٤٨.

١٥- ينظر: سيرة الوليد بن يزيد/٣٦٢.

١٦- ينظر: تاريخ الأدب العربي، العصر
الأموي/١٥١، ودراسات في أدب ونصوص العصر

١- إن المراد من الهجاء بالمرأة في نقائض جرير
والفرزدق إلحاق الأذى بالمهجو؛ لأن المرأة تمثل
شرف الفرد، وأسرته وقبيلته.

٢- إن أغلب من انصب عليهم الهجاء من النساء هنّ من
الكريمات والمحصنات؛ مما يدل على أن هذا الهجاء لا
ينبع من خصومة، أو عداو شخصي، إنما يراد به
اللهو والتسلية العابثة وملء الفراغ المتأتي من حالة
الترف المفرط.

٣- إن صورة الهجاء بالمرأة بين الشعارين موعلة
بالفحش، وابتكار الصور المقذعة، وهذا شر جديد
لغرض الهجاء؛ وصمّ شعرنا العربي بوصمة عار لم
تعرف من قبل، واستغلها أعداء الأمة للنيل من
تاريخنا وأدبنا العربي الذي يحمل في طياته روح
التسامح، وتعظيم المبادئ السامية.

٤- إن مباركة سلطة الدولة الحاكمة لهذا الضرب من
المهاجة؛ أدت إلى الابتعاد عن روح الإسلام، وإشغال
الناس عن الخوض في أمور الحكم والسياسة.

٥- اتخذت لغة الهجاء بالمرأة في نقائض جرير والفرزدق
منحى جديدا يميزه من سائر لغة الهجاء.

٦- إن ابتكار هذا الضرب من الهجاء يعد عنصر إثارة
يفاجئ به الشاعر جمهوره ويشده إليه.

٧- إن الشعارين وقعا في مغالطة واضحة، فهما يشنعان
بالنساء من جهة، ومن جهة أخرى يُعيران من
يتقاعس عن حماية النساء، والذب عن شرفهنّ،
كونهنّ يمثلن شرف القبيلة، فهما تارة يحطّان من
قدرهنّ بهذا الهجاء الفاحش، وأخرى يعلون من
شأنهنّ بالتضحية من أجل صونهنّ.

٨- إن جريراً والفرزدق كانا أول شاعرين في تاريخ
الشعر العربي ابتكرا الهجاء بالمرأة في نقائضهما،
وهذا ما مدّ في إطالة المهاجة بين الشعارين أمداً
طويلاً؛ لملائمتها أذواق الناس، وإثارة شغفهم بها،

- ٣٥- كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق: ١/٢٠٣-٢٠٤.
 ٣٦- ينظر: النص والسلطة والحقيقة، إرادة المعرفة، وإرادة الهيمنة/١٠٩.
 ٣٧- ينظر: الشعر الأموي/١٣٠.
 ٣٨- كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق: ١/٣٨٦.
 ٣٩- م. ن: ٢/٢٩٧-٢٩٨.
 ٤٠- تاريخ الأدب العربي، العصر الأموي/١٥٩.
 ٤١- كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق: ٢/١٦٣-١٦٤.

المصادر والمراجع:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة، يوليوس فلهوزن، ترجمه عن الألمانية: د. عبد الرحمن بدوي، ط٢، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٦م.
- ٣- أدب السياسة في العصر الأموي، د. احمد محمد الحوفي، دار القلم، بيروت، (د.ت).
- ٤- الأدب العربي في العصر الوسيط، من زوال الدولة العباسية حتى بدء النهضة الحديثة، أ.د. ناظم رشيد شيخو، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩٢م.
- ٥- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، منذر الجبوري، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة-آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٦م.
- ٦- تاريخ الأدب العربي، العصر الأموي، د. قصي الحسين، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٢م.

- الأموي/٨٣، وفي الشعر الإسلامي والأموي/٣٥٢-٣٥٣، والأدب في العصر الوسيط، من زوال الدولة العباسية حتى بدء النهضة الحديثة/٧٢.
 ١٧- كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق: ١/١٥٠.
 ١٨- م. ن: ١/١٦٨-١٦٩.
 ١٩- م. ن: ١/١٤٦.
 ٢٠- م. ن: ٢/٢١٢-٢١٣.
 ٢١- ينظر: كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، على سبيل المثال: ٢/٣٥-٣٦، الأبيات: (٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠)، و ٢/١٦٧، الأبيات: (٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢).
 ٢٢- م. ن: ٢/١٠١.
 ٢٣- كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق: ١/١٦٣.
 ٢٤- م. ن: ١/١٢٣-١٢٤.
 ٢٥- م. ن: ١/٢٤٧.
 ٢٦- ينظر المرأة في الشعر الجاهلي/٥٥-٥٦.
 ٢٧- كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق: ٢/١٠٧.
 ٢٨- م. ن: ٢/١٦٣-١٦٤.
 ٢٩- دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي/ ٩٥-٩٦.
 ٣٠- كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق: ١/١٨٥. وليلى أم غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال، ينظر لذلك المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
 ٣١- م. ن: ١/٢٣٣.
 ٣٢- م. ن: ١/٢٤١.
 ٣٣- م. ن: ٢/٢٠٨-٢٠٩.
 ٣٤- ثقافة الوهم، مقاربات حول المرأة والجسد واللغة/٧٠.

- ١٧- المرأة في أدب العصر العباسي، د. واجدة مجيد عبد الله الأترقي، المركز العربي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
- ١٨- المرأة في الشعر الجاهلي، د. علي الهاشمي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٠م.
- ١٩- المرأة في القرآن، عباس محمود العقاد، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩م.
- ٢٠- المشاكلة والاختلاف، قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف، د. عبد الله محمد الغدامي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ١٩٩٤م.
- ٢١- النص والسلطة والحقيقة، إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، نصر حامد أبو زيد، ط٤، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ٢٠٠٠م.
- ٢٢- نظام حقوق المرأة في الإسلام، الشيخ: مرتضى المطهري، ط١، المطبعة: ستار، إيران- قم، ٢٠٠٥م.

Abstract

After that things become to the Umayyad, made poetry for political purposes and interests and made him a propaganda to convince people of their eligibility, so they kept a lot of traditions and values ignorance, tied to rekindle the glory because, for all this and other revived the art of spelling at this stage, and I wish it stopped At this point, but it exceeded all caveats forbidden by custom and while we have become a form of entertainment spelling and absurd and exaggerated, including assault and offends affect symptoms.

This research attempt to bring this issue through poetry and Greer and Alffersdq as spelling, but most felt was the most prominent Arabs at that stage.

- ٧- تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، د. عبد الله محمد الغدامي، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ١٩٩٩م.
- ٨- التطور والتجديد في الشعر الأموي، د. شوقي ضيف، ط٤ منقحة، دار المعارف، مصر، (د،ت).
- ٩- ثقافة الوهم، مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، د. عبد الله محمد الغدامي، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.
- ١٠- الجواري والشعر في العصر العباسي الأول، د. سهام عبد الوهاب الفريخ، ط١، طباعة مطابع مقهوي، الكويت، ١٩٨١م.
- ١١- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م.
- ١٢- دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، د. محمد عبد القادر، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.
- ١٣- الشعر الأموي، د. محمد فتوح، دار النشر، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ١٤- الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، إحسان سرقيس، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
- ١٥- في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥م.
- ١٦- كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، تأليف: أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (ت ٢٠٩هـ)، تحقيق: محمد احمد عبد العزيز سالم، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م.